العرب
الجمعة 2021/09/10
السنة 44 العدد 12175

بلا حبكة لا يوجد أدب.. لكن ماهي الحبكة؟

كل حكاية دوّامة عجيبة لا تحقق وجودها إلا في حالة حركة

عادة ما يختلط مفهوم الحبكة في النقد الأدبي بالعقدة، حيث يدلّ أحيانا على الشكل وأحيانا أخرى على المضمون. وإذا كان نقاد المسرح يفسرونها في الغالب بالحركة الدرامية نفسها فإن نقاد الأدب، مثل جيرار جينيت، يعتبرونها حكاية، أي ما تشكله المسرودية داخل نص سردي.

الحكايات صراع وتوتر بين الشخصيات (لوحة للفنان سنان حسين)

أبوبكر العيادي
كاتب تونسي

تُعلّمنا الأساطير والملاحم والقصص والحكايات منذ القدم أنّ الحبكة هي ما يجعل حكاية ما مبعث تساؤل وفضول، فهي تشوّق المتلقي وتفاجئه بما لم يذهب إليه ظنه، غير أن المنظّرين المحدثين اختاروا العدول عن الحبكة فصارت مجرد رسم تخطيطي عن الحدث، وتنظيم للواقع يحوّل الخطية الزمنية (شيء يتلو شيئا آخر) إلى منطق (شيء يأتي بسبب شيء آخر).

ففي الحقل الأكاديمي تمّت تنقية الحبكة ممّا تروم توليده من خوف وأمل ودهشة، وكأنّ الغاية ازدراء أبعادها الخطابية والجمالية والتطهيرية، أي كل ما تهدف إليه السردية التخييلية. والحال أن الحبكة هي أساس كل عمل سردي واقعيا كان أم تخييليا، فهي من صميم اهتمام البشر بالحكايات، لكونها تنعقد بتصوير أحداث تنتأ على خط الزمن، وتحوّل المعيش اليومي إلى حكاية تروى، فالذي يروي وصوله إلى المكتب لا يمكن أن يشدّ اهتمام سامعيه إلا إذا أدرج حادثة غير مألوفة صادفته في طريقه، تكسر الوضع المعتاد: حادث مرور مثلا، شخص صعد أعلى عمارة يريد الانتحار، عملية نشل عجيبة يصبح فيها النشّال ضحية... أما الفن فيختلق تلك الوضعيات، ولكن بطريقة مقنعة، لكونه يحتاج دائما إلى نصيب من الخداع، كما يقول نابوكوف، وهذا ما يميزه عن الأعمال الحكائية للأنشطة المعتادة، التي تستعجل دائما بلوغ النهاية.

> الحبكة، بالمعنى الدرامي، تستمد جذورها من مفهوم العقدة، كما توارثها النقد الأدبي منذ العصور القديمة

ضد الحبكة

لقد اقتنع جيل من الكتاب والنقاد دون تفكير بأن القصيدة الحق، وكذا الرواية الحق، ليس من غايتها أن تعني شيئا، بل حسبُها أن تكون، فقط. وبعد أن جُرّد المؤلف بدعوى "وهم المقصد"، والقراء بدعوى "وهم المشاعر"، وعالم الأفكار والمعتقدات بدعوى "الهرطقة التعليمية"، والاهتمام السردي بدعوى "هرطقة الحبكة"، جفّت بعض النظريات التي تقول باستقلالية الأثر وموت المؤلف حتى أنها لم تترك سوى منظومات العلاقات اللفظية والرمزية.

فقد استعاض ذلك الجيل عن المفهوم الكلاسيكي للفن الروائي بمقاربة جديدة تستجيب في رأيه لمتطلبات الواقع، فـ"الرواية الجديدة" مثلا أنكرت أهمية الحبكة في العمل الفني، وعدّتها من ملامح الإنتاج الشعبي الهابط حتى أن جان ريكاردو، أحد رموز ذلك التيار الذي لم يتشكل في مدرسة، ثار على ما أسماه توتاليتارية الحكاية حيث كل شيء يدور حول العقدة والانفراج، وأكّد أن "الرواية لم تعد كتابة مغامرة بل مغامرة كتابة". وهو ما سار عليه كتّاب تلك الجماعة، حيث ألغوا البطل والعقدة.

تقول نتالي ساروت "الرواية لم تعد ذلك التيار الذي يدفع بالعقدة إلى الأمام، بل صارت مياها راكدة يتشكل في عمقها تحلل بطيء دقيق".

وتقول أيضا "تلك المشاعر الموجودة لدى الناس جميعا، والتي يمكن أن تتجلى في أيّ وقت لدى أيّ كان، ينبغي أن تكون لها شخوص نكرات، تكاد لا ترى، مجرد سند". فالروائي في نظر دعاة ذلك التّيار مطالب بأن يمّحي من النص ويكتفي بدور سارد خفيّ الاسم يفسح المجال لأشخاص نكرات، بينما يُطالَب القارئ بالمساهمة في خلق النص، وعدم القناعة بتلقي عالم مكتمل، جاهز، منغلق على نفسه.

وكان من الطبيعي أن يظل ذلك التيار محصورا في دائرة ضيقة، إذ لم يجد له أصداء إلا لدى بعض الكتاب العرب ممن يتلقّفون كل ما يطرأ في الغرب، بدعوى مواكبة الحداثة. ومن الطرائف أن كلود سيمون، أحد رؤوس الرواية الجديدة، ليس مقروءا في بلاده حتى بعد حصوله على جائزة نوبل، وأن مكتبة السوربون كانت خلوا من أي أثر من تأليفه عند الإعلان عن فوزه.

التوتر والصراع

الحبكة، بالمعنى الدرامي، تستمد جذورها من مفهوم العقدة، كما توارثها النقد الأدبي منذ العصور القديمة، ولاسيما "الفن الشعري" لهوراسيوس، و"الشعرية" لأرسطو، فالأول يؤكد على وحدة القصيدة وبساطتها، فيما يؤكد الثاني على أن للحكاية بداية ووسطًا ونهاية، ويستعمل صورة العقدة، مثلما يستعمل عبارة plokè التي تعني "نسَج، شبَّك" وكان يقصد بها الحبكة، فالعقدة في تصوره تمتد من البداية إلى المرحلة التي تتحول فيها الأحداث المؤدية إلى السعادة أو الشقاء، وقد أطلق عبارة القرار على ما يأتي بعدها حتى النهاية. وظل هذا التصوّر قائما حتى في الأعمال الدرامية الحديثة.

هذا مثلا بيتر بروك، رجل المسرح الشهير، يؤكّد أن الوظيفة الأساسية للحبكة إثارة نوع من التوق يدفعنا إلى الأمام، عبر النص. فإذا تناولناها من هذه الزاوية تبدّت جهازًا بلاغيًا وتفاعليًا شديد التعقيد، مثل متاهة نُصبت لتضليل القارئ وحثّه على البحث عن مخرج. صحيح أن بنية الحكاية تؤول أحيانا إلى الانكشاف، ولكنها لا تتجلى إلا في نهاية المسار.

ثمّ إن الحبكة تستلزم التّوتّر، وخلقَ وضعيّة صراع من شأنها أن تولّد حركة درامية، لأن بقاء مبدأين متعارضين لا يمكن أن يستمرّ، ولا بدّ أن ينتصر أحدهما على الآخر، أما التوفيق بينهما فمعناه استقرار لا يولّد حركة جديدة ولا يثير انتظار القارئ، ولا بدّ من صراع بين طرفين أو أكثر قبل أن تنحل العقدة وتبزغ لحظة الانفراج.

والحبكة الناجحة رهينة إخبار يتسم بالاقتصاد في الإيضاح والتمنّع المقصود عن تقديم كل العناصر، حيث لا ينبغي السارد يؤجل الكشف عن المعلومة الأساسية ليثير فضول المتلقي الذي يقبل في العادة أن يكون طرفا في لعبة السارد. ولئن كانت مهمة المؤلف الدرامي هي الربط والحل، فإن السارد يعتمد الحبكة لا كوسيلة تأليف بل كأداة تحديد وتوجيه وتحويل للعناصر الأخرى، على رأي الشكلانيين الروس.

إن الحبكة، برغم بساطتها الظاهرة، عسيرة الإمساك، إذ تتعدد طرق تحديد مفاهيم اللقطة والعقدة والانفراج وعلاقاتها بعضها ببعض، وأيّا ما يكن موقفنا منها فلا مناص من الإقرار بضروريتها بوصفها وسيلة تنمي الأحداث وتدفع بها إلى الذروة وتشدّ المتلقّي وتثير فضوله، لأن الوسائل في التجربة الجمالية هي التي تبرر الغاية وليس العكس، ومسار الرحلة هو الذي يحدد المتعة التي يولّدها فينا السفر.

ذلك أن قراءة الحكاية تتغذى بملمحين مختلفين من الحبكة؛ أولهما الصورة السردية الداخلية للأحداث والشخصيات التي تتبدى كحاضنة لإمكانات غير قارة ولّدتها الحبكة في ملمحها الذي لم يتمّ حلّه بعد. في المقابل تغذّي الحبكةُ رغبة القارئ الإدراكية في تملك ملمحها الثاني، أي الصورة النهائية التي تتحقق في ختام الحكاية، عندما تكتمل مجموعة من الأحداث المتناسقة والنهائية.

يقول سارتر "كل حكاية هي دوّامة عجيبة لا تحقق وجودها إلا في حالة حركة".

«التاريخ الشفوي للمرأة في الدرعية».. سعوديات يحرسن الذاكرة

الرياض – أطلقت هيئة تطوير بوابة الدرعية مشروع "التاريخ الشفوي للمرأة في الدرعية" لأول مرة في المملكة، في إطار جهودها الرامية إلى تسجيل الروايات والقصص التي أطلقتها العام الماضي بهدف توثيق روايات وشهادات كبار السن عن الأحداث التاريخية والتراثية، وهو ما مكن الهيئة من الحصول على شهادات دقيقة عن جوانب مهمة من تاريخ وتراث "جوهرة المملكة".

وتنوعت موضوعات المقابلات بين التعليم والضيافة والحرف اليدوية والعلاقات الاجتماعية والأكلات الشعبية والأزياء التقليدية وعدة عناصر ساهمت في بلورة الثقافة العريقة للمنطقة.

وأكدت هيئة تطوير بوابة الدرعية أن توثيق الحياة الاجتماعية للنساء في الدرعية وإبراز دور المرأة في إسهامها داخل المجتمع المحلي من خلال إجراء حوارات شفهية مصورة ومسموعة وتفريغ المقابلات كتابيًا يُعد أحد أهم إنجازاتها، حيث نجح فريق الأبحاث والدراسات التاريخية بالهيئة في توثيق عدد كبير من الروايات المهمة، وذلك بعد عشرات الساعات من المقابلات والحوارات المرئية مع نساء الدرعية خلال الأشهر الماضية.

وأضافت الهيئة أن فكرة المشروع تعتمد على إجراء حوارات شفاهية مصورة مع كبيرات السن من النساء في الدرعية، وتسجيل رواياتهن وقصصهن غير المدرجة في كتب التاريخ المعنية بالمنطقة. وهو مشروع ضخم لا يشمل فقط عملية تصوير الروايات وإنتاجها وتوثيقها، وإنما أيضا وضع معايير دقيقة لانتقاء الرواة ودقة وترابط الرواية أو الحدث عن طريق متخصصين وخبراء وعاملين بالدرعية.

وأشارت إلى أنها اعتمدت في المشروع على أساليب ومنهجية علمية تستند على الترابط والتسلسل الزمني للأحداث والروايات، مبينة أنها مستمرة في جمع وتدقيق وتوثيق الشهادات والروايات المرئية عن الأحداث المهمة المرتبطة بتاريخ الدرعية، بعد أن تم الانتهاء من تسجيل مقابلات المرحلة الأولى. وأكدت أنها تعمل على التوسع في التاريخ الشفوي من خلال زيادة عدد البرامج التي تندرج تحت مشروع التاريخ الشفوي للعام الحالي.

يذكر أن "بوابة الدرعية" قد أكملت أكثر من 200 ساعة من التسجيل المرئي والمسموع وثقت أحداث الدرعية وقصصها التاريخية، أرض الملوك والأبطال، وعاصمة الدولة السعودية الأولى، لتحفظ تاريخها، وتروي أجمل قصصها.

واستطاعت هيئة بوابة الدرعية -بالتعاون مع دارة الملك عبدالعزيز- تدوين القصص والأحداث التاريخية، حيث طورت وراجعت 100 قصة تاريخية للدرعية، ركزت من خلالها على المحاور التاريخية والتراثية والثقافية، وتتعلق بالشخصيات التاريخية البارزة في التاريخ السعودي بأهمّ شخصياته الدينية والسياسية والثقافية والاجتماعية والنساء البارزات والأحداث التاريخية المهمة.

ويخوض السعوديون من خلال تاريخ وتراث وتقاليد الدرعية، عاصمة الدولة السعودية الأولى، تجربة مشتركة يُمكنهم من خلالها بناء مستقبل الوطن، لتنفيذ مشاريع كبرى متنوعة ومتطورة، لتصبح رمزا للوحدة الوطنية وقاعدة أساسية للقيم التي تسهم في تشكيل المستقبل السعودي.

يعد مشروع "بوابة الدرعية" أحد أهم مخرجات ومنجزات رؤية المملكة 2030، وواحدًا من المشروعات الوطنية المنبثقة من الأهداف والتطلعات الطموحة لهذه الرؤية المستقبلية، حيث نمت وتطورت في إطار السعي الحثيث لتحقيق برامجها، لتُصبح بوابة الدرعية أكبر مشروع تراثي وثقافي في العالم.

وقد دشنت السعودية مشروع بوابة الدرعية في نوفمبر 2019 كمشروع متكامل يجمع الثقافي بالاقتصادي والتراثي بالرؤية المستقبلية، ساعيا إلى أن تكون الدرعية التاريخية واحدة من أهم الوجهات السياحية والثقافية وأماكن الجذب في المنطقة والعالم.

ويحقق مشروع بوابة الدرعية العديد من تطلعات وأهداف رؤية المملكة 2030 الاقتصادية والثقافية والاجتماعية، منها تعزيز وحماية التاريخ والتراث السعودي الحضاري، وتطوير المواهب المحلية في مجال البحوث الأكاديمية والتاريخية والتراثية، وتعزيز قيمة الاعتزاز بالتاريخ والتراث الوطني، وزيادة الناتج المحلي الإجمالي وتطوير المحتوى المحلي، والذي يعتبر تدوين حكايات النساء أهم عناصره بما ستوفره من مادة تاريخية وسردية هامة.

وتخطط هيئة تطوير بوابة الدرعية لإنشاء عدد من المتاحف المتميزة، ومراكز الفعاليات والمعارض التراثية والثقافية المتنوعة، وذلك سعيًا لإبراز الدور الذي أدته الدرعية في تطور المنطقة بأكملها إستراتيجيًا واقتصاديًا، إضافة إلى عدد من الأصول ذات الطابع التراثي التقليدي.

كما أقامت الهيئة معارض فنية وجولات بمرافقة مرشدين، ومعارض للحرف اليدوية والعروض والحفلات الموسيقية، وعروض العرضة التراثية وتنسيق واستضافة أكثر من 10 آلاف زائر من كبار الشخصيات؛ لتعريفهم بما تحتويه الدرعية من تاريخ وإرث حضاري عريق.

المشروع يسجل الروايات والقصص عبر توثيق شهادات لكبار السن عن الأحداث التاريخية والتراثية

التاريخ الشفوي كنز النساء السعوديات